جامعة القصيم
Qassim University
كلية العلوم والآداب بعنيزة
College of Science and Arts in Unaizah

كرسي الشيخ ابن عثيمين
للدراسات الشرعية

السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

آثاره العلمية والدعوية

الجزء الأول

الأربعاء والخميس
٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤١

(4)
الملكة التفسيرية عند الشيخ السعدي
د. راشد بن حمود الثنيان

الرعاة

مصرف الإنماء
alinma bank

سبكيم
Sipchem
EXCELLENCE everywhere

القاضي

المَلَكَــة التفْسِــيريّة

عند الشيخ السعدي

د. راشد بن حمود بن راشد الثنيان

أستاذ القرآن وعلومه المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية بالزلفي - جامعة المجمعة

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فالكتابة في ما تميز به العلماء السابقون تحتاج إلى وقت طويل، وجهد كبير للوقوف على شيء يسير من إبداعاتهم، وقراءة فاحصة للاطلاع على بعض ما أُوتوا من ملَكَات علمية، ونظرات ثاقبة في الأحوال والمآلات، ومن هؤلاء العلماء المبرزين الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي المولود في عام ١٣٠٧هـ، توفيت أمه ثم والده قبل سن الثامنة، فنشأ يتيم الأبوين، وحفظ القرآن وعمره إحدى عشرة سنة، جمع الأصول من العلوم، وجلس للتعليم وعمره ثلاث وعشرون سنة، حتى انتهى إليه التدريس في بلده عام ١٣٥٠هـ وعمره ٤٣ سنة، تميّز رحمه الله في الفقه وأصوله، وكان في بداية أمره على مذهب الحنابلة تبعاً لمشايخه، ثم اشتغل بكتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وصار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي بل ينتهي إلى ما يرجحه الدليل الشرعي، كما قرأ وألف في الحديث والعقائد والأصول والمصطلح وعلوم اللغة وغيرها[1]، وبرع في علم التفسير كثيراً، وكُتِب عنه ما ألقاه على تلاميذه مما فتح الله عليه من البديهة ارتجالاً دون أن يكون عنده وقت للتصنيف، فجمع فيه المعاني والفوائد واللطائف ودقة الاستنباط من الأدلة واللطائف والقصص وغيرها مما هو مبسوط في جميع مصنفاته وكتاباته المتنوعة في جميع العلوم الأصلية والمساعدة، وقد أمضى عمره في العلم والتعليم والتدريس والتأليف حتى آخر حياته، رغم إصابته بالمرض الذي لازمه مدة طويلة حتى قبضه الله عام ١٣٧٦هـ رحمه الله رحمة واسعة.

وقد اعتنى السعدي رحمه الله بعلم التفسير عناية كبيرة، بياناً واستنباطاً وتقعيداً، فكتب تفسيره المشهور: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)،

(١) إتحاف النبلاء بسير العلماء ١/ ٤٦.

ثم اختصره في كتاب: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)، وكَتَب في قواعد التفسير (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن)، وسطّر هداياتٍ جميلة وفوائد لطيفة في كتابه: (المواهب الربانية من الآيات القرآنية) وكتابه: (فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)، وكتاب: (فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن)، وهذه الكتب من أبرز الكتب القريبة لباب التفسير.

ولِمَا تميّز به السعدي من سلامة المنهج وصحة المعتقد والتزام بمذهب السلف الصالح، كتب الله لها القبول والانتشار، وصارت إضافة قويةً للمكتبة القرآنية.

ومن قرأ في كتب الشيخ السعدي وتفسيره تبين أنه أجاد صنعة المفسر وأحسن توظيفها في بيان معاني كلام الله تعالى، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث في بيان الملكة التفسيرية التي تميز بها الشيخ ابن سعدي رحمه الله.

أهداف البحث:

١- إبراز الملكة التفسيرية عند الشيخ السعدي رحمه الله.

٢- الوقوف على تطبيقات عملية تدل على ذلك.

٣- بيان شيء من ملكة الشيخ السعدي لأصول التفسير.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والسؤال تبين لي كثرة الأبحاث العلمية في ما يتعلق بالشيخ السعدي، ومما وقفت عليه ما يلي:

١- أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، للأستاذ: عبدالله بن محمد الطيار. بين فيه آثار السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، من خلال مؤلفاته، وتلاميذه من بعده. طبع في دار

ابن الجوزي بالدمام عام ١٤١٣هـ.

٢- حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور، جمع وإعداد: أحمد القرعاوي، تجمع باختصار حياة السعدي الشخصية والعلمية.

٣- صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله للأستاذ: عبدالله بن محمد الطيَّار، بحث فيه حياة الشيخ الشخصية والعلمية، ومذهبه، وذكر شيوخه وتلاميذه، وثناء العلماء عليه، وما رثي به من قصائد ونحوها. طبع في دار ابن الجوزي بالدمام عام ١٤١٣هـ.

٤- الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي مفسراً للدكتور: عبدالله بن سابح بن صالح الطيار، رسالة ماجستير مقدمة لقسم القرآن وعلومه، بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٧هـ، بين فيها حياة الشيخ ومنهجه وأثره وطريقته في التفسير.

٥- الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، للأستاذ: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد. رسالة ماجستير مقدمة لقسم العقيدة بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية لعام ١٤٠٧هـ. فيها بيان جهود السعدي في توضيح العقيدة وبيان منهجه في ذلك.

٦- الشيخ عبدالرحمن السعدي منهجه وأثره في الدعوة إلى الله، للباحث: عبدالله بن محمد الرميَّان. رسالة ماجستير مقدمة لقسم الدعوة والاحتساب بكلية الدعوة بجامعة الإمام فرع المدينة عام ١٤١٤هـ. بيّن فيها الجانب الدعوي في حياة السعدي، واستنباط الدروس والعبر من حياته في الدعوة.

٧- الشيخ عبدالرحمن السعدي حياته، علمه، منهجه في الدعوة إلى الله، للباحث: عبدالعزيز بن سعود العمَّار. رسالة ماجستير مقدمة للمعهد العالي

للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥-١٤٠٦هـ. استنبط القضايا الدعوية عند السعدي في تفسيره فحسب.

٨- الفكر التربوي عند الشيخ عبدالرحمن السعدي دراسة تحليلية ناقدة، د. عبدالعزيز بن عبدالله الرشودي. تناول الأُطر المؤثرة في فكر السعدي، وحياته الشخصية والعلمية، وأطال في التربية والعلم والتعليم عند السعدي، طبع في دار ابن الجوزي عام ١٤٢٠هـ.

٩- ترجيحات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي في التفسير جمعاً ودراسة، رسالة ماجستير في القرآن وعلومه للباحث: عبدالله بن أحمد زقيلي، قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض عام ١٤٢٥-١٤٢٦هـ.

١٠- استنباطات الشيخ عبدالرحمن السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة، رسالة دكتوراه للباحث: سيف بن منصر الحارثي، قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض عام ١٤٣١هـ.

١١- قواعد التفسير بين التنظير والتطبيق عند الشيخ السعدي القواعد الحسان وتيسير الكريم الرحمن نموذجاً. للطالب: هشام شوقي، رسالة ماجستير في قسم أصول الدين لكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة الحاج لخضر -باتنة- بالجمهورية الجزائرية. ترجم للشيخ، وفصّل في دراسة كتاب القواعد الحسان، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ثم دراسة تطبيقية للقواعد التي ذكرها الشيخ في كتابه القواعد الحسان.

١٢- فقه الشيخ ابن سعدي رحمه الله للأستاذ: عبدالله بن محمد بن أحمد الطيَّار، والدكتور: سليمان بن عبدالله أبا الخيل.

١٣- سيرة العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، للباحث: محمد حامد الفقي. عبارة عن مجموعة من المقالات لبعض العلماء والأدباء في وصف حياة السعدي العلمية والشخصية، طبعت في القاهرة، مطبعة السنة المحمدية.

١٤- مجتنى الفوائد الدعوية والتربوية من مؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، للباحث: محمد بن عبدالله الوائلي.

ومع كل هذه المؤلفات المتنوعة لم أجد من أفرد الحديث عن ملَكَته التفسيرية، أو ضمّنَها بحثَه، فلذا رأيت المشاركة في هذه الدراسة التي تبين ما وصل إليه السعدي من الملَكَة والصّنْعة التفسيرية التي بان أثرها فيما كتبه في التفسير وقواعده، وأسميته: (الملكة التفسيرية عند الشيخ السعدي رحمه الله).

والله الموفق والمسدد والمعين.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها تعريف مختصر بالشيخ والإشارة لمؤلفاته في التفسير، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه التعريف بالملَكَة التفسيرية ومعالمها عند الشيخ السعدي.

المبحث الأول: ملكة التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: تبحره في العلوم الضرورية لعلم التفسير.

المطلب الثاني: تفسيره بالسياق مع علمه بأحوال النزول.

المطلب الثالث: عمق فهمه ودقة استنباطه.

المبحث الثاني: ملكة أصول التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: سبقه في تأليف قواعد التفسير.

المطلب الثاني: التميّز في عرض قواعد التفسير وتنوعها.

المطلب الثالث: التربية بأصول التفسير ومقاصده.

الخاتمة.

المراجع.

فهرس الموضوعات.

أسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد.

التمهيد

قبل الدخول في صلب البحث يحسن التمهيد ببيان معنى الملَكَة التفسيرية، وبعض المعالم التي امتلكها الشيخ السعدي رحمه الله في التفسير.

أولاً: تعريف الملَكَة لغةً: الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ في الشيء[1]، ومنه: مَلَكه يَمْلِكه مَلْكاً ومِلْكاً ومُلْكاً ومَلَكَةً ومَمْلَكَة ومَمْلُكة ومَمْلِكة[2].

قال ابن سيده: (المَلْكُ والمُلْكُ والمِلْك: احتواء الشيء والقدرة على الاستبدادبه)[3].

وأما اصطلاحاً: فالملَكَة تطلق على معنيين[4]:

المعنى الأول: الصفة الراسخة في النفس، وتحقيقه أنها هيئة تحصل للنفس بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفيةٌ نفسانية، وتسمّى حالةً ما دامت سريعةَ الزوال، فإذا تكرّرت ومارَسَتْها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها، وصارت بطيئةَ الزوال صارت ملَكَة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخلقاً[5].

المعنى الثاني: ما يقابل العدم، وهو الوجود[6]، أي: الاستعداد والقابلية، فيكون

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/ ٣٥١.

(٢) لسان العرب ١٠/ ٤٩١.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ١٨٥.

(٤) ينظر: الكليات ١٣٨١.

(٥) التعريفات ٢٩٦.

(٦) الكليات ١٣٨١، وأضاف هذا المصطلح إلى علم أهل المنطق.

فيه القدرة على الفعل أو الترك. والعدم المقابل له ارتفاعُ هذه الملَكَة[1].

كالحيوان مثلاً: عنده ملكة السمع والبصر فهو قابل لها، بخلاف الجماد فليس لديه هذه الملكة.

والمراد في هذا البحث هو المعنى الأول.

ثانيًا: تعريف التفسير لغةً: من فَسَرَ، والفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه. ومن ذلك الفَسْرُ[2]، والفَسْرُ البيان، فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضم فَسْراً وفَسَّرَهُ أَبانه[3]، فهو البيان والإيضاح.

والتفسير اصطلاحًا: عُرف بتعريفات كثيرة ليس هذا محل بحثها ومناقشتها، وأقربها والله أعلم أن يقال: هو بيان ما أشكل من معاني القرآن الكريم.

قال ابن الجوزي: (التفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي)[4].

وقال ابن منظور: (كشفُ المراد عن اللفظ المُشْكل)[5].

ثم صار في العرف: بيان معاني القرآن عموماً[6].

وبناء على هذا فالملَكة التفسيرية: هي صفة راسخة في النفس تحقق فهم مقاصد القرآن وبيان معانيه والاستنباط منه وفق الأصول الشرعية.

(١) ينظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٨٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٥٠٤.

(٣) لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٤) زاد المسير ١/ ٤.

(٥) لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٦) وبه عرفه ابن عثيمين رحمه الله في كتابه: أصول في التفسير ٢٧.

ثالثًا: الحديث هنا عن الشيخ السعدي رحمه الله سَيُركِّز على ملكته العلمية بكتاب الله تعالى، حيث وهبه الله تعالى العلم بفضله، ورزقه استعداداً فطرياً طبَعِياً وذكاءً بزكاءٍ، ويسر له العناية بالقواعد والكليات، مع الإلمام بمقاصد الشريعة، والنظر في أقوال المفسرين وحسن الاختيار بينها، مع التجربة والنجاح بممارسة الحياة عملياً بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم ودراسة واقعهم، ومزاولة الفتوى، ومعرفته بالسيرة والعلوم الاجتماعية وغيرها.

ولذا وفقه الله لإصابة الحق، واطرادٍ في التفسير، وسلامةٍ من التناقض، وفهمٍ شامل للمعنى التفسيري، وقدرة على الوصول لما فيه من الأسرار، وإصدار الأحكام الكلية، وتناول صحيح لمسائل الخلاف، وإدراكٍ لاتساق التفسير وتكامل المعاني، والطمأنينةِ لصحة ما وصل إليه، بعد التأهل للاجتهاد في التفسير، وبلوغه درجة الراسخين في العلم.

قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: (كان رحمه الله كثير الفقه، والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام، إلا في ما يترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً، إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة)[1].

هذه معالم لما وصل إليه الشيخ السعدي من ملكة تفسيرية، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم، وفي هذا البحث جملٌ شاهدة وتطبيقات واضحة تكشف شيئاً من هذه الملكة العجيبة لديه.

---

(١) صفحات من حياة علامة القصيم ٩٧.

المبحث الأول ملَكَة التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: تبحره في العلوم الضرورية لعلم التفسير.

تميّز السعدي رحمه الله في امتلاك قدرات العالم الرباني في جمْعِ أصول العلم، وامتلاك مهارة التعليم لمن بين يديه، والتأليف لمن بعده في تراث عظيم خلده التأريخ، رغم صعوبات البداية عند الشيخ رحمه الله، إلا أنه فاق أقرانه، وسلك طريق العلم من أبوابه الصحيحة، فامتلك المواهب الجليلة في العلم النافع والعمل الصالح، ومن معالم هذه الملكة المميّزة:

١- نبوغه في عامة العلوم الشرعية وتأليفه فيها.

فألف في التفسير: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، والقواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية.

وفي الحديث: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

وفي العقيدة: القول السديد في مقاصد التوحيد، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

وفي الفقه: منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، والإرشاد إلى معرفة الأحكام.

وفي أصول الفقه: القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، ورسالة في القواعد الفقهية.

كما ألف في أبواب متفرقة في الآداب والمواعظ والخطب والفتاوى واللطائف والهدايات وغيرها.

وقد وصل إلى هذه الملكة في التآليف المتنوعة بعد رسوخه في العلم، وهدفُه

فيها كما يشير كثيراً نفعُ الناس وهدايتهم.

قال ابن بسام رحمه الله: (فلما بلغ أشده، ونضج علمه، ورسخ قدمه، شرع في التأليف)[1].

٢- كما تميّزت تآليفه بمقدمات تعريفية تبين الغاية من التأليف، مع الإشارة إلى أهم ما في الكتاب من موضوعات، ومن ذلك قوله في مقدمة القواعد الحسان: (أما بعد: فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخْبَرها أجلُّ من وصفها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفاسير، ومناهج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة ..)[2].

ففي كلامه تمهيد للقارئ وتعريف له بأهمية المقروء.

٣- أن الشيخ السعدي رحمه الله صرف غالب وقته في التعليم، بأسلوب واضح سهل، بالتحرير والكتابة أو الإجابة للمستفتين، مع ظهور شخصيته العلمية المستقلة.

حيث ملك القوة في ترجيح ما يعضده الدليل، ولو قال الأكثر بخلافه، بمنهج مكتمل يصل إلى أفهام المتعلمين، وقد أكد هذا بقوله: (فإذا شرع المعلم في مسألة وضحها وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير، ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين ..)[3].

وهو بهذا يقرر ما يقول ويعمل به من أهمية الوضوح في الشرح، ومراعاة

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون ٢/ ٤٢٤.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٥.

(٣) المجموعة الكاملة للسعدي ٧/ ٤٥٤.

الأفهام، والتدرج في التعليم، وصناعة الطلاب لتولي التعليم، وقد ظهر أثر هذا في أسلوبه التفسيري بكل وضوح.

٤- التكامل بين مؤلفاته في تحقيق الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، وهي توحيد الله والتمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، وقد انتهج هذا جلياً في تفسيره.

٥- شمول تفسيره لبيان معاني القرآن بأسلوب شيّق وجذاب، ولذا جاء في الجديد من اللطائف التي لم يسبق لها في طريقة العرض والتوجيه، فأضاف فيه الجديد والمفيد.

وهذه القدرة القوية والعزيمة الصادقة من الشيخ السعدي رحمه الله في الجمع بين العلم المؤصل والتعليم المميّز والتأليف النوعي قلّ أن تجتمع في عالِمي زمانه، ومع ذلك الأسلوب السهل والطرح الميسر، مما جعل لكتبه القبول والأثر فيمن خلَفَه، وسخّر الله تعالى من بعده للعناية بكتبه تحقيقاً وتعليقاً وشرحاً واختصاراً.

وبهذا يظهر جلياً سرُّ هذه الملكة النوعية التي بانت معالمها وثمارها فيما سطره في التفسير وأصوله، فكان لهما نصيب طيب عند الشيخ رحمه الله بسطها في مؤلفاته الواسعة.

المطلب الثاني: تفسيره بالسياق مع معرفته بأحوال النزول.

كَتَبَ الشيخ السعدي في وسط صفحة غلاف التفسير ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه [مثاني] تُثنّى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكمٍ عظيمة، وأمر بتدبّره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف،

وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها)[1].

فتفسير السعدي مع اختصاره إلا أنه كاف وافٍ ببيان المعنى المراد من كلام الله تعالى بوجهٍ مركّزٍ دقيقٍ وسهل يسير على أفهام الناس أجمعين.

وفي كل موضعٍ يفسر كامل الآيات حسب ما يقتضيه السياق، دون إحالة على ما سبق من الآيات المشابهة لها، فيبسط في بعضها ما ليس في الآخر.

وهذه ملكة عظيمة تميز بها الشيخ رحمه الله في فهم السياقات المختلفة في آيات القرآن وتفسير الآية مراعيًا جميع جوانبها والمقابلة بينها وبين نظيرها في المواضع الأخرى، مع حضور الهدف الأساس عنده في جميع سياقات القرآن، وهو هداية الخلق كلهم على اختلاف أنواعهم ومنازلهم، مع ما وهبه الله من إلمام بعلوم العربية المساعدة لفهم كلام الله تعالى.

يقول السعدي رحمه الله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧] أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر باللّه وبطر النعمة؟..)[2].

ويذكر لطائف وقواعد في السياق فيقول مثلاً: (.. وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم لا يختص به: ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، ولينـدفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل: [وما كيدهم إلا في ضلال]

(١) تفسير السعدي ١٥.

(٢) تفسير السعدي ٦٧٧.

بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٥][1].

وهو رحمه الله يؤصّل هذا المبدأ لمن أراد أن يفسر القرآن في مقدمة تفسيره، فيقول: (وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها)[2].

ومن أعظم مزايا تفسير السعدي رحمه الله تناسق التفسير مع القرآن بأسلوب سهل واضح حيث يذكر جزءاً من الآية، ثم يفسيرها، ثم يعود للآية ويفسرها تباعاً؛ بترابط عجيب بين المعاني، وذكْرِ ما يحضره من الفوائد حسب المقامات مع دمج الإيمانيات والهدايات في التفسير مما يترك أثراً في نفوس القراء، وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

كما أن له عنايةً بارزة في المناسبات بين الآيات والجمل؛ فكثيراً ما يقول في تفسيره: ولما ذكر الله كذا ذكر كذا، كما في حديثه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

(١) تفسير السعدي ٧٣٦.

(٢) تفسير السعدي ٢٩، ٣٠.

نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤] قال بعدها: (ولما ذكر الله حال الدنيا، وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥][1].

وبعد تفسير قوله تعالى﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] قال: (فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس:٤] أي: سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم)[2].

ومع اهتمام السعدي رحمه الله بالسياق والمناسبات بين الآيات فهو يعرض أحوال النزول بصورة تجعل الذهن يعيش ما كان عليه النزول؛ فيقول مثلاً في بداية سورة المجادِلة: (نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت)[3]. ثم بدأ بالتفصيل في تفسير الآيات.

واهتمام السعدي رحمه الله بالنزول ينقلك وأنت تقرأ تفسيره إلى العيش مع القرآن، وكأنه يخاطبك الآن، حيث إن العبرة عنده بعموم اللفظ لا بخصوص

---

(١) تفسير السعدي ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) تفسير السعدي ٣٥٧.

(٣) تفسير السعدي ٨٤٣.

السبب، فيقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤] (وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف: ٢ - ٣])[1].

كما تجده إذا ذكر احتمالاً لبعض المعاني ووجد قولاً يجمع ما قيل في الآية يرجحه بكل ثقة لعدم وجود مانع في اللفظ، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان: ١٠] وقوله: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان: ١] (وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان: ١٠] أن هذا كله يكون يوم القيامة.

و قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٥-١٦] هذا ما وقع لقريش كما تقدم، وإذا نُزِّلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك؛ بل تجدها مطابقةً لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم)[2].

وكثيراً ما يرجح بالسياق، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣]، ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف استدركت، فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ أي: من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.... إلى أن قال: (وهذا هو الصواب أن هذا

---

(١) تفسير السعدي ٥١.

(٢) تفسير السعدي ٧٧١.

من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر)[1].

وفي قوله تعالى ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: ٣ - ٤] قال متدبّراً وواعِظاً ومرجّحاً بالسياق: (أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برَّها وفاجرَها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحيّي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأُعِيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح، وأنها تعرج في يوم بما يسَّر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللَّطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمّهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على

---

(١) تفسير السعدي ٤٠٠.

وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة؛ فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا)[1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧] قال السعدي: (خصّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام)[2].

فمراعاة السياق مع المعرفة بقصة الآيات ومعانيها وأحوالها وذكر هذه اللفتات البيانية مما اهتم به السعدي رحمه الله وأضافَ جمالاً على تفسيره.

وهذه الملكة في التفسير السياقي عند الشيخ السعدي ظاهرة في جميع تفسيره، حيث يجد المطّلع على التفسير ربط المعاني بالسياق بطريقة غير متكلفة، وهذا بالتأكيد له أثر كبير في فهم الآيات واستشعار الأحوال والمعاني.

المطلب الثالث: عمق فهمه ودقة استنباطه.

ضرب السعدي أروع الأمثلة في تفسيره بما يدل على ملكته الكبيرة لفهم الآيات واستخراج الكثير من الفوائد واللطائف والعبر والحِكَم والأحكام، والغوص في معاني الآيات لاستخراج ما خفي فيها من المعاني.

فمن قرأ في تفسيره وجده مُعِيناً على التدبر والتأمل الأمْثَل لمقاصد كتاب الله تعالى؛ مما يزيد في محبة القرآن، والاهتداء بهداياته، ومعرفة معانيه، والوقوف على أحكامه.

---

(١) تفسير السعدي ٨٨٥.

(٢) تفسير السعدي ٨٤٢.

كما أنه لا يفوّت مقاماً يرى فيه المناسبة لتربية النفوس وتزكيتها بكلام الله، إلا وأبدع في عبارات جميلة لطيفة فيها العمق الدلالي للجمع بين التفسير والتزكية به، والتربية على الأخلاق ومعالي الأمور.

حيث يقول السعدي رحمه الله ضمن تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩]: (ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، وردّه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية)[1].

ويَستنبط السعدي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٤] أن علم القرآن والتوحيد يجب فيهما العلم ولا يكفي غلبة الظن، فيقول: (وفيها: أنّ مما يُطلبُ فيه العلم، ولا يكفي غلبَة الظنّ، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[هود: ١٤][2].

ويعْقدُ السعدي رحمه الله المقارنةَ بين محنة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ومحنته مع إخوته وأنواع الصبر فيهما، وأيهما أشد مع ذكر الأسباب، فيقول: (هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد

---

(١) تفسير السعدي ٣٨٥.

(٢) تفسير السعدي ٣٧٨.

بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن راودته التي هو في بيتها عن نفسه أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر)[1].

فهو بهذه المقارنة يعطي دروساً عميقة في دلالات الآيات واستنباط المعاني بأن الصبر أنواع وبعضها أشد من بعض، ومن نجح في التعامل مع الأشد نجح فيما دونه من باب أولى.

وربطُ السعدي رحمه الله للمعاني في السياقات أمرٌ عجيب، مع استخدام أسلوب السؤال والجواب الذي يدل على قوة الفهم وجمال الاستنباط، ومن ذلك قوله رحمه الله بعد تفسيره قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ١٧]، قال: (ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾[الزمر: ١٧ - ١٨] ... إلى أن قال: (وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدُوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسَنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن مَنْ آثره علِمْنا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية)[2]. وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله ﷺ[3].

---

(١) تفسير السعدي ٣٩٦.

(٢) تفسير السعدي ٧٢١.

(٣) ينظر: تفسير السعدي ٧٢٢.

ثم عندما يتكلم رحمه الله في تفسير بعض الآيات لا يتوقف عن الاستنباطات منها حتى يشبعها بياناً، ففي آية الوضوء مثلاً ذكر واحداً وخمسين حكماً، حيث قال: (هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها[1] امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ﴾ [المائدة: ٦] إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة، لقوله: ﴿قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦.[

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة...

إلى أن قال: (الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها، ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة)[2].

فتجد هذه المهارة العلمية عند السعدي رحمه الله، فيذكر في الآية من الفوائد واللطائف والأحكام والمعاني ما لم يُسبق إليه.

ومن ذلك ما خالف به السعدي رحمه الله كثيراً من المفسرين في تفسيره في سورة [ص] حينما تحدث في قصة داود عليه السلام، رجح أن الله لم يذكر الذنب

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب أن (فيها) زائدة. ينظر: تفسير السعدي ٢٢٢.

(٢) تفسير السعدي ٢٢٢.

الذي كان من داود عليه السلام؛ لعدم الحاجة لذكره، حيث قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾[ص: ٢٥] الذي صدر منه، وأكرمه اللّه بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا﴾ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره اللّه لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه اللّه علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها)[1].

وهو بهذا يسكت عن الإسرائيليات التي ذكرت في هذه القصة، ويشير لأهمية الوقوف على المقصود من الآية، وهو الاستغفار والتوبة والخوف من الفتنة والعقاب.

فتفسير السعدي رحمه الله جمع بين البيان والدقة في المعاني والغايات، وهي هِبة من هِبات الله تعالى وهَبَها للشيخ السعدي رحمه الله.

(١) تفسير السعدي ٧١١.

المبحث الثاني ملكة أصول التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: سبقه في تأليف قواعد التفسير.

الكتابة في قواعد التفسير (كفن مستقل) قليلة، بل نادرة، فلا نستطيع التفصيل في الحديث عن نشأة هذا العلم، ولا زالت قواعد التفسير بحاجة إلى دراسة تأصيلية.

إلا أن ابتداءه كان من العهد النبوي مع نشأة التفسير؛ لكنها كتابات متفرقة مبثوثة ضمن كتب التفسير أو كتب علوم القرآن أو غيرها.

ثم في القرن الثاني: ظهرت جملة مدونة من الكتب، ومنها كأول كتاب في أصول الفقه (الرسالة) للشافعي الذي تطرق لشيء من القواعد في أصول الفقه وبينها وبين قواعد التفسير نقاط التقاء.

ثم في القرنين الثالث والرابع: اتسع التدوين في كتب التفسير واللغة كـ(تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة)، وتفسير الطبري، وأحكام القرآن للطحاوي، وأحكام القرآن للجصاص، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس.

ثم في القرنين الخامس والسادس: تطور التآليف في أصول الفقه واللغة والتفسير: كـ الإحكام لابن حزم، والبرهان للجويني، وأصول الفقه للسرخسي، والمستصفى للغزالي، والمحرر الوجيز لابن عطية، وفنون الأفنان لابن الجوزي، وغيرها.

وفي القرنين السابع والثامن: برزت مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه، والبحر المحيط لأبي حيان، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، والبرهان للزركشي، والمنثور في قواعد الفقه، والبحر المحيط في أصول الفقه، ومؤلفات ابن رجب، وغيرها.

وهكذا ظلت قواعد التفسير مبثوثة في بطون الكتب في القرون الخمسة التالية.

حتى جاء القرن الرابع عشر الهجري، فاستقل التأليف في قواعد التفسير كمصطلح خاص للقواعد التفسيرية ابتداء بكتاب السعدي رحمه الله (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن).

فذكر فيه إحدى وسبعين قاعدة مع أمثلتها (وقد حققه د. خالد السبت). جمع فيه قواعد في التفسير، وقواعد فقهية مستنبطة من القرآن، وفوائد ولطائف، وقواعد قرآنية توضح منهج القرآن في بعض القضايا كمقابلة الوعد بالوعيد، وغيرها.

ومن هنا نحسب للإمام السعدي هذا السبق في التأليف المقاصدي الأصولي والذي يعدّ إضافة علمية للمكتبة القرآنية في كليات قرآنية وقواعد تفسيرية، حيث برع في عرض هذه القواعد التي نشأت بعد تجربة وتطبيق عملي في تفاسيره رحمه الله.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أهمية معرفة القواعد قبل الدخول في الجزئيات فقال: (لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، و إلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات)[1].

فتأليفه لهذه القواعد تأسيس وتقعيد لأصول التفسير وما ينبغي للمفسر أن يتمكن منه؛ كي يصيب في تنزيلها على الفروع، ولإدراكه مدى الحاجة لمعرفة قواعد التفسير قبل الشروع فيه، ومع ضعف التعليم الرسمي في بداية عصر الشيخ السعدي إلا أنه تجاوز هذه المرحلة بالقراءة والتعلم الذاتي وبملازمة علماء بلده، فنبغ في هذه الأصول وصنع لنفسه ملكة خاصة في الاستنباط والتدليل، وكتب هذه القواعد العظيمة النفع لتعين على فهم كلام الله والاهتداء به، حيث يقول عنها:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٠٣، منهاج السنة ٥/ ٨٣.

(ومَخْبَرُهـا أجـلّ من وصفِها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفسـير ومنهاج الفهم عن الله ما يعين على كثير من التفاسير الحالية في هذه البحوث النافعة)[1].

وكتابة الشـيخ لهذه القواعد بعد كتابته للتفسـير أشـبه ما يكون بوضع الميزان الذي يحمي المفسـرَ من الخطأ في تفسـيره، فهي علم وسـيلة والتفسـير علم غاية، كالنحو بالنسبة للكلام العربي، والله أعلم.

(١) مقدمة القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٥.

المطلب الثاني

التميّز في عرض قواعد التفسير وتنوعها.

تميّزَ السعدي رحمه الله في عرضه لقواعد التفسير فبيّن في مقدمته أنّ علمَ التفسير أجلُّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبها إلى الله، وجمع فيها أصولاً مهمة لتدبر كتاب الله، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، ونوّع في عرضها مع الإيجاز، وأشار إلى أن قضاء العمر مع القرآن وتدبره ليس كثيراً، ففيه أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساسات الدين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة.

فقواعد التفسير تتميّز بأن موضوعها القرآن الكريم، الذي هو أصل العلوم النافعة كلها، وفيه خير العاجل والآجل، وهذه القواعد تعين على فهمه، ومن أتقن القواعد تمكن من الاستنباط وتمييز الأقوال، وانفتحت له معان قرآنيةٌ كثيرة جداً، وصار بيده آلة يتمكن بها من الفهم والاستنباط، ويصبح عنده ملَكَةٌ تجعله يُحسن الاختيار والترجيح بين الأقوال المختلفة، ويأمن من الاضطراب والخطأ والانحراف في التفسير.

وفي هذه القواعد تيسير أمرِ العلم على المتعلم، وتسهيل تحصيله وفهمه، واختصار وقته.

فمن لم يعرف الأصول حرم الوصول، ومن حفظ مسائل كثيرة دون أصل لم يعرف ما خرج عنها، لكن لو عرف الباحثُ الضابطَ والأصلَ لحكمَ على جميع الجزئيات.

يقول السعدي رحمه الله: (والأصول تُبنى عليها الفروع، والفروعُ تثبت

بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى، وينمي نماء مطرداً..)[1].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (فأنا أحث إخواني على معرفة الأصول والضوابط والقواعد لما فيها من الفائدة العظيمة، وهذا شيء جربناه وشاهدناه مع غيرنا على أن الأصول هي المهم)[2].

وفي ضبط القواعد: ثبوت العلم وقوته وزيادته، فالقاعدة للعلم كالأصل للشجرة، فقوة ثباته ورسوخه أدعى لنماء الشجرة وحسن ثمارها.

فلذلك نوّعَ السعدي رحمه الله القواعدَ في كتابه ما بين قواعد في طرق القرآن:

كطريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده، وطريقته في تقرير نبوة محمد ﷺ، وطريقته في تقرير المعاد، وغيرها، وما بين قواعد في علم التفسير: كقاعدة كيفية تلقي التفسير.

وقواعد في أسلوب القرآن: كطريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم، وطرقه في دعوة الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وقواعد في مقاصد أمثلة القرآن وقصصه.

وقواعد أصولية وفقهية: كدلالات الألفاظ، وكالأمر بالشيء نهي عن ضده، والرجوع إلى المتيقن حال الاشتباه، والأجر على قدر المشقة.

وقواعد تربوية: كمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وأثر الصبر وما يعين عليه، وحث الشارع على الصلاح والإصلاح.

كما تضمن الكتاب قواعد في التفسير وعلوم القرآن كثيرة: كالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وحذف المتعلق يفيد العموم، والمفرد المضاف واسم

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول ٤.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢٦/ ٢٠٥.

الجمع يفيدان العموم، وغيرها.

ومِن تَميُّز السعدي رحمه الله وملَكَته التفسيرية في هذه القواعد استنباطاته النوعية الدالة على سعته العلمية، ولنقف على شيء من ذلك مثلاً:

قوله في قاعدة إرشادات القرآن -بعد عرض العلوم التي أرشد القرآن لها-: (وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً، كما هي مطلوبة لازمة عقلاً، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن ..)[1].

وهذا من الاستنباطات المقاصدية للقرآن.

وفي قاعدة بيان المرض في القرآن قال: (مرض القلوب نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات المحرمات، والطريق إلى تمييز هذا من هذا - مع كثرة ورودهما في القرآن - يُدرَك من السياق؛ فإن كان في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان هذا من مرض الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرض شهوة)[2].

ثم ذكر وجه انحصار المرض في هذين النوعين بأن صحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته ما يحبه الله ويرضاه، فالقلب الصحيح هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل وتركه، فمن الأول: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، ومن الثاني: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾[الأحزاب: ٣٢]، وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفاً في علمه، وإرادته.

ففي هذه القواعد معالمُ واضحة لجادّة الطريق الصحيح للباحث في علم

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦٧-٦٨.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٨٥.

التفسير، واستحضار لمنهج الصحابة ﷺ في تلقّيه.

قال السعدي رحمه الله في القاعدة الأولى بعد ذكر منهج الصحابة في تلقي معاني القرآن: (فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته، وازدادت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات)[1].

ومما عرضه في القواعد قاعدة: ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهي قاعدة في علم المناسبات بين الآية وما ختمت به من الأسماء الحسنى، وهي مما قد يغفل عنه كثير من المفسرين، ومن تتبع آيات القرآن تبين له العلاقة القوية بين الآيات والأسماء المختومة بها، ومن ثمراتها أن كل هدايات القرآن نابعة عن أسماء الله وصفاته، وهو باب عظيم في معرفة الله، ومعرفة أحكامه، ولذا أطال فيها الشيخ السعدي وبين الكثير من الأمثلة عليها، وقال رحمه الله: (ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها، قال تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فذِكرُ إحاطةُ علمه بعد ذِكرِ خلقه للأرض والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟)[2].

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٧.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٢.

ثم أفاض بذكر الأمثلة وتناسبها في ختام الآيات بالأسماء الحسنى في أكثر من عشرين موضعاً، ومنها قوله: (ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعاً وقدراً وجزاء)[١].

حتى ختمها بقوله: (ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة؛ مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران:١٢٩] وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٣] فذلك يدلّ على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك)[٢].

ويتضح من ختمه بالإشارة أنه اقتصر على ما ذكره من الأمثلة، ليؤصل أنها قاعدة مطردة في كتاب الله تعالى في جميع الآيات المختومة بالأسماء الحسنى، وقد بسطها في تفسيره في جميع المواضع، وأعاد تفسير الأسماء الحسنى حيث تكررت في أواخر الآيات، إيماناً منه بأنها من أهم المهمات، وأن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسماء الله وصفاته، ومرتبط بها[٣].

وقد اعتنى السعدي رحمه الله بقواعد التفسير تطبيقاً على التفسير قبل أن يؤلف

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٥.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٧.

(٣) ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٧٠.

كتاب القواعد، ولذا فعندما تتأمل في تفسيره تجد اعتماده على التعليل بقواعد كثيرة، وبعضها لم يذكرها في كتابه القواعد الحسان، ومن ذلك مثلاً:

قاعدة: تقديم المعمول يفيد الحصر، حيث قال السعدي رحمه الله: (وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك)[1].

وقاعدة: ثبوت الشيء يستلزم ضده، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ [النساء: ٦٦] قال السعدي رحمه الله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده)[2].

وقاعدة كل فعل مدح الله فاعله فهو مما يحبه الله، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨] (والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية: استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دلّ ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه)[3].

---

(١) تفسير السعدي ٣٩.

(٢) تفسير السعدي ١٨٥.

(٣) تفسير السعدي ٤٧٥.

فهذه أمثلة على تطبيق السعدي للقواعد التفسيرية وعرضٌ لها في تفسيره بطريقة التعليل للمسألة الواردة في السياق، والإفادة بعموم الحكم لكل ما جاء على نفس سياقها ومدلولها.

وهذا أسلوبٌ عالٍ في التعليم وتقعيده وتأصيله، وملَكَة عامة، بعدم الوقوف على المثال الواحد والحكم على الأفراد، بل يعطيك الحكم والمعنى بوضوح ويقويك بالآلة لتقيس عليه ما شابهه، والله أعلم.

المطلب الثالث

التربية بأصول التفسير ومقاصد القرآن.

مما ركّز عليه السعدي وتميز به رحمه الله مراعاة المآلات، والتربية من خلال أصول التفسير وقواعده، وهذا أمر بارز في غالب ما كتبه رحمه الله؛ وفي القواعد الحسان خصيصاً، فغالب القواعد يبيّن اتجاه السعدي رحمه الله في العناية بمقاصد القرآن، ومن الأمثلة على ذلك:

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد القرآن، وبعدها أنواع إرشادات القرآن، وبعدها حث القرآن على التوسط، وبعدها: أمر الله بحفظ حدوده، ثم في القاعدة الخامسة والثلاثين: دلالة القرآن على تحصيل أعلى المصلحتين وارتكاب أخف الضررين، وفي القاعدة الحادية والأربعين: بيّن حقوق الله وحقوق رسوله ﷺ الخاصة والمشتركة، وهكذا[1].

هذا الاهتمام وما تضمنته هذه القواعد من تأصيل علمي وتمثيل قرآني على بيان مقاصد القرآن وتربية المسلم على هذه المبادئ ومعرفة الغايات والمقاصد.

يقول السعدي رحمه الله: (اعلم أن القرآن الكريم احتوى أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه ..)[2].

ثم يذكر ما فيه بيان هذه المواضيع بأسلوب سهل واضح، فيركز على أمثال القرآن التي لا يخلو جزء من القرآن منها؛ لأن فيها حياة القلوب، وشدّ البصر والبصيرة، كما قال تعالى﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت: ٤٣ وفيها

---

(١) ينظر: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١، ٦٦، ٨٨، ٩٧.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١.

مدح لمن يفهم الأمثال.

فقد ذكر السعدي أن في المثل إيضاح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه(١).

وقال بعد أن بين أمر الله بحفظ حدوده والنهي عن تعديها وقربانها: (فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها، كما أن أصل الشر وأسباب العقوبات الجهل لحدود الله، أو ترك المحافظة عليها، أو الجمع بين الشرّين)(٢).

والتربية عند السعدي علمٌ وعمل، وهما سبب صلاح الإنسان في هذه الدنيا ونجاته في الآخرة، حيث يقول: (فمن فضل الله على الأمة أن منّ عليهم بهؤلاء العلماء الربانيين المربين لهم بنوعين من أنواع التربية العالية، أحدهما: التربية العلمية يربونهم بصغار العلم قبل كباره، .. والنوع الثاني: التربية العملية، يربون أخلاقهم ويحثونهم على كل خلق حميد)(٣).

فالتربية العلمية عنده هي العلم النافع، والتربية العملية هي العمل الصالح، وبهاتين التربيتين يخرج الإنسان من وصف الجهالة إلى الطمأنينة(٤).

قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] (فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكلما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي

(١) ينظر: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١، ٦٢.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٧١.

(٣) المجموعة الكاملة للسعدي ٣/ ٤٠٩.

(٤) ينظر: فوائد مستنبطة من قصة يوسف، المجموعة الكاملة ١/ ١٣٢.

دعاه إليها، زاده من ذلك)[1].

فالسعدي رحمه الله تميّز في هذا الباب وصار يتحدث عنه ويوجه إليه في غالب كتاباته التفسيرية، قال ابن عثيمين في تقديمه على تفسير السعدي ضمن ميزات التفسير: (أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة،كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]ومن أجل هذا أشير على كل مريدٍ لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم)[2].

حيث فسر السعديُّ الآية بأنها جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم، فيأخذ ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، والأمرُ بكل قول حسن وفعل جميل، ثم بين ما ينبغي أن يعامِل به العبدُ شياطين الإنس والجن، وفي أي حال: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠] أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾أي: التجئ واعتصم باللّه، واحتم بحماه فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس: ١] إلى آخر السورة[3].

والحديث عما ما كتبه السعدي في هذا الباب لا ينتهي، وفيما ذُكِر إشاراتٌ وهداياتٌ لما صار ملازماً للشيخ السعدي رحمه الله في جميع كتابته التفسيرية من التربية بالقرآن وتفسيره، والله أعلم.

---

(١) تفسير السعدي ٥٧٥.

(٢) تفسير السعدي ١١.

(٣) تفسير السعدي ٣١٣.

الخاتمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله، والشكر له على جزيل فضله وعظيم نعمائه، وصلى الله على خير خلقه وأشرف أنبيائه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا، أما بعد:

فقد تأملت في هذا البحث ما وصل إليه الشيخ السعدي رحمه الله من ملَكَة تفسيرية، وتجوّلْت في ما كتبه في التفسير وقواعده، فتوصلت للنتائج الآتية:

١- أن الشيخ السعدي رحمه الله قد أتقن صنعة المفسر وحاز الملَكَة التفسيرية بكل اقتدار،وهي العلم الراسخ في نفسه الذي حقق له فهم مقاصد القرآن ومعانيه، واستطاع الاستنباط منه وفق الأصول الشرعية.

٢- أن الشيخ السعدي رحمه الله أحسن توظيف الملكة التفسيرية في بيان معاني كلام الله تعالى، ومن معالم هذا التوظيف: التبحر في العلوم الضرورية لعلم التفسير، والفهم للسياقات المختلفة وأحوال النزول، وحسن النظر في أقوال المفسرين وجودة الاختيار، والفهم العميق والاستنباط الدقيق، والعناية بالقواعد والكليات، مع إلمامه بمقاصد الشريعة، وامتلاكه التجربة وممارسة واقع الحياة بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم وظروفهم، ومزاولة الفتوى، ومعرفته بالسيرة والعلوم الاجتماعية وغيرها.

٣- أن من آثار الملكة التفسيرية عند السعدي رحمه الله: حسنُ التآليف في التفسير وقواعده، والاطراد في التفسير، وتطبيق الأصول على الفروع، وتوظيف التربية والتعليم في التفسير، والسلامة من التناقض، والطمأنينةِ لصحة ما وصل إليه، والفهم الشامل للمعنى التفسيري، والقدرة على الوصول للأسرار وإصدار الأحكام الكلية، مع تناولٍ صحيح لمسائل الخلاف، وإدراكٍ لاتساق التفسير

وتكامل معانيه، مع التأهل للاجتهاد في التفسير، وبلوغه درجة الراسخين في العلم.

٤- أن غاية السعدي رحمه الله في غالب تآليفه دلالة الخلق إلى ما فيه صالحهم في الدنيا والآخرة، ولذا ترى أثر هذا ظاهراً في تفسير كل آية، وفي قواعد التفسير أصول لذلك وأمثلة.

٥- أن السعدى رحمه الله سابق لزمانه في أساليب العلم والتعليم والتربية، ولذا كان له أثر كبير في تلاميذه حسب ما نراه في الواقع.

٦- أن السعدي رحمه الله في تفسيره لم يكن مقلداً في التفسير، بل رجح ما يراه موافقاً للدليل أو التعليل الصحيح.

٧- أن السعدي رحمه الله في غالب تفسيره يأخذ بالقول الأعم، والذي يجمع ما قيل في الآية، وهذا من ملَكَته التفسيرية التي فيها مبدأ الاحتراز من طرح بعض الأقوال بلا دليل، وكذلك العمل بقاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب المعتبرة عند عامة العلماء، مع أنه كثيراً ما ينقل الأقوال دون ترجيح، ولعل هذا المنهج أيضاً تورعٌ منه لعدم ترجح أحدها لديه.

٨- أن السعدي رحمه الله موافقٌ لمن سبقه في غالب قواعد التفسير، ومع ذلك فقد ظهر تميّزه في إضافة بعض اللفتات والنكت والاستنباطات والفوائد واللطائف، وطريقة عرضها.

٩- تميز السعدي رحمه الله في عرض قواعد التفسير وتنوعها مع ضرب الأمثلة الموضحة لها.

١٠- أن السعدي رحمه الله طبّق قواعد التفسير وعلّل بها في تفسيره قبل أن يؤلف القواعد.

١١- عناية السعدي رحمه الله بالتربية والتعليم في ضوء التفسير، وجمعِه بين العلم والعمل في تطبيق ذلك.

١٢- دقة الاستنباط التي امتلكها السعدي رحمه الله من دلالات الآيات ووصوله منزلة الراسخين في العلم.

وقبل الختام أوصي بما يلي:

١. أهمية تأصيل قواعد التفسير، ودراسة منهج السعدي في قواعده دراسة تحليلية.

٢. استنباط القواعد التفسيرية التي اعتمدها السعدي في تفسيره ولم يذكرها في كتابه القواعد الحسان.

٣. أهمية العناية بكتب السعدي واكتشاف ما فيها من أسرار علمية وتربوية.

٤. دراسة ما تفرد به السعدي عما سبقه، قولاً أو منهجاً، واختياراته التي كان لها أثرٌ في تلاميذه.

٥. دراسة المناسبات بين الآيات والجمل عند السعدي رحمه الله؛ لاهتمامه بها كثيراً.

أسأل الله تعالى أن يرفع منازل الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي في عليين، وأن يجمعنا به ووالدينا ومشايخنا ومن نحب في جنات النعيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجـــع

- إتحاف النبلاء بسير العلماء، تأليف: راشد بن عثمان الزهراني، دار الصميعي، السعودية، ط٢م ١٤١٨هـ.
- أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، أ.د عبدالله بن محمد الطيار.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٥هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، طبعة دار طيبة بالرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق، مكتبة الرشد، الرياض، ط٣/ ١٤٢٢هـ.
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي. ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.
- شرح أصول في التفسير لابن عثيمين، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ط١/ ١٤٣٤هـ.
- صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ أ. د عبدالله بن محمد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٣هـ.
- طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، مختارات من كتب ابن تيمية وابن القيم، للسعدي، دار البصيرة، جمهورية مصر العربية، ط١/ ٢٠٠٠م.
- علماء نجد خلال ثمانية قرون لعبدالله بن عبدالرحمن البسام، دار العاصمة، ط٢/ ١٤١٩هـ.
- فتح الرحيم الملك العلام فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد

والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن للسعدي، اعتنى به: د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، طبعة دار ابن الجوزي، ط٣.

- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي، تحقيق د. خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي، ط٢/ ١٤٢١هـ.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب لابن منظور، ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، ط١/ ١٤٢٣هـ.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة، ١٤١٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٢١هـ.
- المعجم الوسيط، إشراف عبدالسلام هارون، إخراج إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، المكتبية الإسلامية، تركيا، ١٣٩٢ه.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، اعتنى به: د. محمد عوض مرعب وفاطمة أصلان، طبعة دار إحياء التراث العربي، ط١/ ١٤٢٢هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط٢/ ١٤١١هـ.